حازم القرطاجني نحويًا

للأستاذ : ابن يونس الزاكى

تمهيد :

عمد النحاة ــ صوناً للغة العربية من الضياع، وخوفاً من فُشُوِّ اللحن على ألسنة أبنائها ــ إلى صياغة قواعدها في متون، وهي في الاصطلاح الذي درج عليه المعلمون عبارة عن مبادىء فن من الفنون تكثف في رسائلَ قصيرة يستظهرها الطلاب ترسيخاً لمسائل العلم في حفظهم، وهذه المتون تكون نثراً ونظماً . وقد راج النظم لسهولة حفظه، وإن كان التعقيد ألزمَ له ، لما توجبه مقتضيات الوزن من تقديم وتأخير على التكثيف .[1]

ولا أخالني مستطيعاً ــ في مثل هذا المقال ــ استقراءَ كل المنظومات التي وضعت في هذا الفن، ولكني مكتفٍ بالتنبيه ــ بإيجاز ــ على أكثرها شهرةً وتداولاً بين طلبة العلم، لأخلص إلى منظومة المُترجَم له : حازم القرطاجني .

وأحسب أنَّ من أقدم ما عرف دارسو النحو من منظومات: «ملحة الاعراب في صناعة الاعراب»[2] للحريري[3].

أما المنظومة الثانية التي ذاع صيتها في الآفاق، فهي ألفية[4] ابن معطي[5] وقد فرغ من نظمها سنة ٥٩٥ هـ كما نبه إلى ذلك بقوله:

نظمها يحي بن معطي المغربي ∴ تذكرة وجيزة للمعرب
وفق مراد المنتهي والنشأة ∴ في الخمس والتسعين والخمس مائة

وقد اشتهرت هذه المنظومة عند المتقدمين بـ : الدرة الألفية .وهو الاسم الذي أطلقه ناظمها عليها في قوله:

تحويه أشعارهم المروية ∴ هذا تمام الدرة الألفية

وعرفت عند المتأخرين بـ : ألفية ابن معطي اعتماداً علي مانعتها به ابن مالك في قوله :

وتقتضي رضا بغير سخط ∴ فائقة ألفية ابن معط

أما المنظومة الثالثة التي تداولتها الألسن منذ عصر ناظمها إلى يومنا، فهي ألفية[٦] ابن مالك.[٧]وقد كُتِبَ لهذة المنظومة من الشهرة والذيوع ما لم يُكْتَب لغيرها . وعُرِفت بين دارسي النحو باسمين اثنين: أولاً: الألفية. لقول ناظمها:

وأستعين الله في ألفية ∴ مقاصد النحو بها محوية

ثانياً: الخلاصة لقول ناظمها:

أحصي من الكافية[٨] الخلاصة ∴ كما اقتضي غنى بلا خصاصة

أما المنظومة الرابعة التي حظِيَت بعناية الدارسين فهي: الفريدة[٩] للسيوطي[١٠] وقد افتتحها بقوله:

أقول بعد الحمد والسلام ∴ على النبي أفصح الأنام
النحو خير ما به المرء عني ∴ إذْ ليس علم منه حقّاً يغتني
وهذه ألفية فيه حوت ∴ أصولَه ونفعَ طلاب نوت
فائقة ألفية ابن مالك[١١] ∴ لكونها واضحة المسالك
وجمعها من الأصول ما خلت ∴ عنه وضبط مرسلات أهمِلَت

ولئن كان قد كتب لهذه المنظومات الذيوع والانتشار حتى طبقت شهرتها الآفاق، فإن منظومة مترجمنا حازم القرطاجني قد ظلت في طيّ النسيان والإهمال، إذ انشغل عنها الباحثون، فلم يولوها كبيرَ عناية، وغفلوا عن لطائفها الفريدة، وفرائدها المفيدة .

التعريف بحازم القرطاجني :

وأراني ملزماً ـ قبل الشروع في بيان محتويات هذة المنظومة ـ التعريف بناظمها .

هو حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي[١٢] النحوي أبو الحسن هنيء الدين شيخ البلاغة . قال أبو حيان:[١٣] هو أوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان، روى عن جماعة يقاربون ألفاً وعنه أبو حيان، وابن رشيد،[١٤] وذكره في رحلته فقال: حبر البلغاء وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لانعلم أحداً مما لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم، من منقول ومبتدع. وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها، وأميراً في الشرق والغرب. وأمّا حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حمّاد راويتها، وحمّال أوقارها، يجمع الى ذلك جودة تصنيفه وبراعة الخط ، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية .

صنَّفَ سراج البلغاء في البلاغة، كتاباً في القوافي، وقصيدة في النحو على حرف الميم . مولده سنة ثمان وستمائة، ومات ليلة السبت رابع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة . ومن شعره:

من قال حسبي من الورى بشر ∴ فحسبي الله حسبي الله
كم آية للاله شاهدة ∴ بأنة لاإله إلا هو.[١٥]

وقال المقري: ولنزد نحن ما أمكننا حيث لم يوف السيوطي بحقه في الطبقات الصغرى لأنها مبنية على الاختصار، ولم نقف على الطبقات الكبرى التي أحال عليها فنقول:

قال بعض المؤرخين: هو حازم بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصاري، فجعل والد الحسن حازما، وجعله السيوطي محمدا، فلا ندري ـ يقول المقري ـ هل هذا من النسبة إلى الجد، فيرجع ماعند السيوطي إلى وفاق، أوهما مختلفان ؟

القرطاجني: منسوب إلى قرطاجنة[١٦] من سواحل كورة تدمير من شرقي الأندلس . وهو خاتمة شعراء الأندلس الفحول، مع تقدمه في معرفة لسان العرب وأخبارها، ونزل افريقية

بعد خروجه من بلده، فطار له صِيته، وعمر إلى أن مات بتونس، حضرة ملوكها ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة .

قلت: ــ القائل المقري ــ وله في الرشيد أمداح كثيرة. أنشدها في الإشادة ومدح الأمير أبا زكريان ،صاحب افريقية، وولده أبا عبد الله المستنصر ، وله ألّفَ المقصورة المشعورة، وقصر محاسنها على مدحه.[١٧]

ويحدثنا الدكتور محمد الحبيب بلخوجة عن البيئة التي نشأ فيها حازم فيقول: «نشأ أبو الحسن حازم في وسط ممتاز ذي يسار، وقضي طفولته وشبابه في عيش رغد، متنقلاً بين قرطاجنة ومرسية كما تدل على ذلك مقاطيع كثيرة من مقصورته . ولم يكن دائماً منقطعاً إلى لذائذ الحياة ومتعها مولياً وجهه قبلها، بل كان إلى ذلك مقبلاً على التعلم جادّاً في الدرس . وقد بدأ ككل الأطفال في عصره بحفظ القرآن ، وتخرج في قراءته على شيوخ جلة من قراء بلده. ووجد من والده خير ملقن وموجه لمعرفة العربية وتعلم قواعدها والإلمام بطائفة من قضايا الفقه والعلوم الحديثة. ولما يفع أقبل مثل معاصِرَيْه ابن الأبار[١٨] والمخزومي [١٩] على دراسة العلوم الشرعية واللغوية، وكان ذلك، يدعوه إلى التردد باستمرار على مدينة مرسية القريبة مِنْهُ للأخذ عن أشياخها أمثالِ الطرسوني[٢٠] والعروضي.[٢١] وهناك درس كثيراً من أمهات الكتب حتي فاق نظراءه واكتملت عناصر ثقافته فكان فقيهاً مالكي المذهب كوانده، نحويًا بصرياً كعامة علماء الأندلس، حافظا للحديث، راوية للأخبار والأدب، شاعراً. ولم تقف به هِمّة البحث والدرس عند هذا الحد، بل كان طموحه يدفع به إلى الاستزادة من ذلك والأخذ عن الأعلام المعروفين المقيمين بجنوبي الجزيرة. ودفعه تَوَقُّهُ الشديد للمعارف إلى الذهاب إلى غرناطة وأشبيلية، فجمع من الأسانيد والإجازات ما جمع، واتصل آخر الأمر بشيخه الجليل عمدة الحديث والعربية الذي عرف بالانتساب إليه: أبي علي الشلوبين.[٢٢]

وأُعْجِبَ حازم بعلو منزلة أستاذه، وأَكْبرَ اتساع معارفه، فأقبل على مطالعة ما أشار عليه به من مصنفات شيخه ابن رشد وكتب غيره من الفلاسفة أمثال الفرابي وابن سينا وقارب عدد شيوخ حازم حسب مقالة أبي حيان الألفَ، لكننا لسوء الحظ ــ يقول بلخوجة ــ لا نملك برنامجاً،[٢٣] ولم تُوقفْنَا المصادر القليلة على أكثر مما وقعت الإشارة إليه منهم، فلا نقدر أن نعد في هذا السلك بأسمائهم غير والده والطرسوني والعروضي والشلوبين.[٢٤]

ويبدو أنَّ الأحداث التي أفرزها عصر حازم لم تكن موَاتية له ليستقر في وطنه ومَسقط رأسه، فقد حدثت أحداث أليمة كدرت عليه صفو عيشه، ذلك أنه «لم يكد يبلغ العشرين حولاً من عمره حتى أصيب في والده الذي توفي بمرسية[٢٥] سنة ٦٣٢ هـ، وبعد ذلك بقليل، في السنة الموالية سقطت قاعدة الأمويين بالأندلس بيد النصارى، واحتل الأسبان قرطبة سنة ٦٣٣ هـ، وتوالت أثرَ تلك الفتن والمحن، وعرفتْ نفسَ المصير على التعاقب مدنُ : بياسة،[٢٦]، وبلنسية،[٢٧] وشاطبة،[٢٨] ودانية.[٢٩]

وانطفأ الأمل الوحيد للمسلمين بالأندلس بموت ابن هود[٣٠] سنة ٦٣٥ هـ . ولم يكن من آثار تلك الظروف والأحداث غير فزع المسلمين وانقسام جماعتهم: طائفة منهم تكره مَلِكَ غرناطة ابن الأحمر،[٣١] ولت وجهها نحو الأمير الحفصي بتونس وبعثت إلى أبي زكريان[٣٢] الأول بسفارتها مبايعة ومستصرخة، وطائفة عن ملك غرناطة، شايَعَتْ الموحدين ، وقد كان على رأسهم يومئذ الخليفة الرشيد. أما حازم، فقد اضطر ككثير من مواطنيه إلى مفارقة وطنه ومسقط رأسه مهاجراً إلى المغرب . . .

ويبدو أنه لم يحسن الاختيار حين قصد مراكش متخذاً منها في مهجره دار إقامة. فقد كانت الحياة بها مضطربة أيَّ اضطراب، وهي لا تفضل من أي وجه الأندلس لِمَا كان ينتابها من حوادثَ وفتن .

ولعل الاضطرابات السياسية العنيفة التي انتابت المغرب الأقصى عصرئذ لم تشجع حازماً وأضرابَه على الاستقرار بمراكش، فتركها مولياً إلى تونس حيث «مَثُلَ بين يدي أبي زكريان الأول وأنشدَ فيه قصيدته الصادية التي أعلنَ فيها بيعته وطلبَ من الأمير حمايته واستصرخه مثل مواطنه ابن الأبار لإنقاذ الأندلس المغلوبة المنكوبة.[٣٣]

وقد حَرَصَ حازم وغيره من العلماء المهاجرين من أوطانهم إلى تونس على إذكاء الحياة الفكرية بها، وبثِّ النشاط الفكري بين طلبة العلم، فتألَّقَ نجمُ الأندلسيين، وصار لحازم واضرابه مكانة مرموقة بين أهل العلم.

لكن هذا لم يكن ليدوم طويلاً ، فقد «فتن المتعصبين، وأغاظ الحساد من رؤساء وعلية رجال الدولة الحفصية، لِما حرص عليه هؤلاء من حماية مراكزهم الاجتماعية، ولما هالهم من

المزاحمة الثقافية والسياسية فأخذوا يمكرون ويحوكون الدسائس والسعايات حول المهاجرين الأندلسيين.

وامتاز أبو الحسن ــ حازم ــ في هذا الوسط، وفرض نفسه بعلمه ومواهبه، وسار ذكره في الآفاق، ووصلته من المشرق إجازات، وتبوأ منزلة الشيوخ، وكان من المسيرين للحياة العلمية في عهده، فأشفَقَ من صراحته بعض الطلاب والعلماء أمثال اللبلي،[٣٤] وابن عصفور،[٣٥] وبالغ في تقديره وتعظيمه آخرون.

هكذا كانت حياة حازم حافلةً بالأدب والعلم، زاخرة بالنشاط الفكري في كل مكان حلَّ به من بلاد الأندلس والمغرب وافريقية.[٣٦]

آثار حازم النحوية

خلّف حازم، كما نبّه إلى ذلك، السيوطي[٣٧] مُؤَلَّفَين اثنين:

١ ــ رسالة في الرد على كتاب المقرب لابن عصفور، أسماها: شد الزنار على جحفلة الحمار.[٣٨]

٢ ــ قصيدة نحوية على حرف الميم. وهي موضوع هذه الدراسة.

وقد نظم حازم هذه القصيدة في النحو فقط، خلافاً لأشهر المنظومات، فإنَّها في النحو والصرف.

وأما عدد أبياتها فمختلف فيه. فقد نشرها الأستاذ عثمان الكعّاك في ديوان حازم،[٣٩] ومجموع أبياتها هنالك سبعة عشر ومائتا بيت. وأما الدكتور بلخوجة[٤٠] فيميل إلى أنّ عددَ أبياتها تسعة عشر ومائتا بيت. وهي من بحر البسيط.[٤١]

ورجح الدكتور بلخوجة أن ناظمها أراد أن يضع بها متْناً في العلوم العربية على نحو ما صنع ابن معطى وابن مالك، ثم وقف عن اتمامها فلم يبلغ بها الألف بيت مثلهما.[٤٢]

منهج حازم من خلال منظومته :

صَدَّر حازم منظومته ببيتين حمِدَ الله تعالى فيهما، وصلى على النبي ﷺ على غرار ما صنع غيره من أصحاب المنظومات فقال:

الحمد لله معلي قدر من علما ∴ وجاعلِ العقل في سُبْل الهدى علَما
ثم الصلاة على الهادي لسنته ∴ محمد خير مبعوث به اتسما.

ثم انتقل بعد هذا التصدير إلي مدح أمير تونس أبي عبد الله المستنصر، فأشاد بالنعم التي أغدقها هذا الأمير على قصّاد افريقية، فنعموا في حضرته بعيش رغيد. وقد استأثر هذا المدح من منظومته بأربعة وعشرين بيتاً، أوَّلُهَا قوله:

ثم الدعا لأميرِ المؤمنين أبي ∴ عبد الاله الذي فاق الحَيَا كرما

وآخرها قوله:

وُصلتَ مستنصرًا بالله منتصرا ∴ على العِدا واثقاً بالله معتصمَا

ثم تخلَّص من ذلك إلى الموضوع الأصلي من قصيدته، فتحدث عن صناعة النحو، وتعرض لمباحث عديدة يمكن عرضها على النحو الآتي :

١ ــ حد الكلام والنحو :

تحدث في هذا المدخل عن تعريف علم النحو وعوامل الرفع والنصب والخفض ثم نبه إلى أن رافع الاسم ضربان: لفظي ومعنوي. قال:

فاسمع إلى القول في طرق الكلام وما ∴ علم اللسان به قد حُدَّ أو رُسِمَا
النحو: علم بأحكام الكلام وما ∴ من التغاير يعرو اللفظ والكلما
وعامل الرفع قدمه ومنه إلى ∴ عوامل النصْب والخفض انقُلِ القدَمَا
ورافع الاسم إن حقّقْت أضرُبَه ∴ لمعنوي، ولفظيّ قد انقسما
فالمعنوي ابتداء لاوجود له ∴ إلّا إذا أصبح اللفظي منعدِمَا

٢ ــ رافعات الأسماء :

ويبين في هذا القسم ما يرفع اللفظ وهو عنده الفعل أو ما شابَهَهُ أو غدا معه في الحكم كاسم الفعل واسم المفعول وما حاكاهما. ثم ينتقل ليتحدث عن الحروف وأقسامها، فينبه إلى أنَّ لها أحكاماً شبيهة بالفعل وماكان في حكمه من حيث إنها تدخل على الألفاظ فترفعها أو تنصبها.

فمن التي تنصب اللفظ وقت اتصالها بها: إنَّ، ولكِنَّ، وليْتَ، ولَعَلَّ، وهو المشار إليه في قوله :

فـ : إنَّ أنَّ لها أخت مذ ارتضعا ∴ ثـديَ التشبه بـالأفعـال مـافـطما
وُعـدَّ لكِنَّ أختـا، أو كَـأَنَّ لهـا ∴ ولَيْتَ، ثم لعَلَّ المرتجى بهما

واما الحروف الرافعة للفظ التي تدخل عليه فذكر منها: مَا، ولاَتَ، ولاَ. ونبه إلى استتار اسِم لاَتَ فقال:

ومَـا، ولاَتَ، ولا لـلاسم رافعـة ∴ وما يزال اسمُ لاتَ الدهر مكتتِمَا[٤٣]

٣ ــ ناصبات الأسماء :

وقد أفردَ لهذا القسم عشرين بيتا. ويمكن توزيعها على الشكل الآتي.

ا ــ **الأفعال المتعدية**: وأشار إلى أن منها ما ينصب مفعولاً واحداً، وماينصب مفْعولين، وما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل. وهو المراد من قوله:

فـذو التعـدي إذا أحببت قسمتَـه ∴ وجـدتـه في لسـان العـرب منقسـما
لناصبٍ واحداً أو ضعفَ ذلك، أو ∴ ثـلاثـة: بعضهـا بعضـاً قـد الـتزمـا

ب ــ **أدوات النداء**: تعرَّض لذكر أكثرها تداولاً فقال:

وللنـداء حـروف وهي: يـا وأَيَـا ∴ وأَيْ لمن قـد غـدا مـدعـوه أمـا
والهمـزة انتـظمت في سلكهـا وهَيَـا ∴ وَوَا النـدبـة من قـد فَـادَ واخـترمـا

جـ ــ **أدوات الاستثناء**: عدَّدَ منها أكثرَها استعمالاً، ثم نبه إلى أحوال المستثنى حين

يكون تاما أو منقطعا، وما ينبني على ذلك من اختلاف أحكام المستثنى باختلاف أحوال الأساليب إثباتاً وسلباً.

وينبه في آخر حديثه عن الاستثناء إلى أنَّ علماء النحو لم يجمعوا رأيَهم على فهم مشترك فيما يتعلق بهذا المبحث:

والقول في باب الاستثناء متسع ∴ وقد تخالف فيه الجلة الزعما

٤ ـ خافضات الأسماء :

ويتناول في هذا القسم اللفظ الذي يعتريه الجر حقيقةً وهو الذي سُبِق بحرف من حروف الجر، واللفظ الذي يكون فيه الخفض تقديراً، وهو المضاف فيقول:

وخافض الاسم حرف للإضافة أو ∴ إضافة دون حرف فلتكن فهما

٥ ـ الفعل وأحكامه:

وينتقل حازم من الأسماء إلى الأفعال، فيتحدث عن أحكامها رفعاً ونصباً وجزماً:

وكل فعل بضم أنت ترفعه ∴ فبالسكون لدى الإعراب قد جزما
وكل معتلِّ فعلٍ فهو منجزم ∴ بالحذف من لم يقل هذا فقد وهِمَا

٦ ـ الجملة الإسمية ونواسخها:

يعرض حازم في هذا المبحث بالبيان إلى كون المبتدأ أصلاً، والخبر فرعاً وحق الأصل أن يتقدم على الفرع:

أصل الكلام ابتداء بعده خبر ∴ كلاهما ظل فيه الرفع ملتزما
والقول في الابتداء أبدأ به وبما ∴ يكون أصلاً وكن بالفرع مختتِما

ويتحدث عن دخول النواسخ على الجملة الإسمية، فيعرض لما يعتريها من تغييرات إعرابية فيقول:

وجاعلِ العقلِ في سُبُلِ الهُدى علما ... علما

خيرِ مبعوثٍ به اتّسما

فاقَ الحيا كرما

١٣ ان الليالي والايامَ مذ خَدَمَتْ بالسُّعدِ ملكَكَ أضحت أعبداً وإما

١٤ فمن سعودِ نجوم أو صعادِ قنا قد ضُيّرت لك أملاكُ الورى خدما

١٥ لقد رفعتَ عماداً للعلا فغدا يعلو قياماً ويعلو قدرُه قيما

١٦ أقمتَ وزنَ شمس العدلِ فاعتدلت فلم يدعْ نورُها ظُلماً ولا ظُلَما

١٧ فتونسُ تؤنس الأبصارَ رؤيتُها وتمنحُ الأممَ الأسماء والاسما

١٢٣

حد الكلام والنحو

٣١ فاسمعْ الى القولِ في طُرُقِ الكلام وما
عِلْمُ اللسانِ به قد حُدَّ او رُسِمَا

٣٢ النحوُ : علمٌ بأحكامِ الكلامِ وما
من التغايُرِ يعرو اللفظَ والكلما

١٢٤

تقسيم الكلام :

٣٥ وكلّ قولٍ اذا قَسَّمتَه أنقسما (٣) ثلاثةٌ : بعضُها بعضاً قد التزما

٣٦ فالاسمُ لفظٌ بدا، او ضعفَ ذلك او كثيرةٌ كوَشى، او خاطَ، او رقما

٦٥(١) لناصبٍ واحداً (٢) لمفعولِ على حدةٍ كمثل ظنّ و اعطى، بابها انقسما

٦٦ فالناصباتُ لمفعولٍ على حدةٍ

٦٧ والناصباتُ لمفعولين في نسقٍ

١٢٦

تَصِلْ بها عَلِمَ اذكر بعدها زعما
٧٤ والناصباتُ لمجموع الثلاثة لم يكثرنَ، فاصرفْ الى إحصائها الهمما

١٣١ والنصبُ بالفتح في ما ليس يلحقه مدٌّ ونونٌ من الصنفين قد رسما
١٣٢ وألحِق الألفَ الأسماءَ خَمْسَتها في النصبِ، تجلُ من الإلباس كل عمى
١٤٣ والنصبُ بالكسرِ في تاءِ الجموع فكن لكل ما التزموا من ذاك مُلتزما

١٢٩

ديوان حازم القرطاجني - ٩

١٥٤ ونسبةٌ بين مجهولين قد عدمت احاطةٌ لم تفد فكراً ولا
١٥٥ وحق ما ابتُدِئَ التقديمُ عندهمُ وربما قدّموا ...

١٣٠

مما عطفت غلو التسديد من خرما
١٧٥ وجيء بمشتركِ الأخبار منفرداً وقل : عليٌّ وعمروٌ مكرمٌ قشما
١٧٦ وخذ بما شئته من قولهم عمرٌ وصالحٌ صالحٌ ، أو صالحان هما

١٣١

١٧٧ وحقُّ ما ابتدئَ التعريفُ عندهم وقد يكونُ له التنكير ملتزما
١٧٨ وللبداية بالتنكير أمكنةٌ منهنَّ في خبر : ذ
١٧٩ وفي تعجبٍ او شرطٍ ومسألةٍ

٢١٦ فكم مصيبٍ عزا من لم يصبْ خطأً له وكم ظالمٍ تلقاه مظلوما
٢١٧ والغبن في العلم أشجى محنةٍ علمت وأبرحُ الناسِ شجواً عالمٌ هضما

(انتهى ما وجد بحمد الله)

١٣٣

والناسخات لها أفعال أفئدة[٤٤] ∴ وفعل نقص وحرف جمعها قسما
وبعضها رافعٌ اسمٍ ناصبٌ خبرا ∴ كمثل كَانَ وما ببابها ارتسما
وبعضها ناصبٌ اسمٍ رافعٌ خبرا ∴ كمثل إنَّ وما في شعبها اقتحما

٧ ـ بيان جواز الابتداء بالنكرة:

ويعرض بالتنبيه إلى أن هنالك مواضعَ يجوز فيها الابتداء بالنكرة اذا استوفى المبتدأ الشروط التي جمعها قوله:

وحق ما ابْتُدِئ التعريف عندهم ∴ وقد يكون له التنكير ملتزما
وللبداية بالتنكير أمكنة ∴ منهن في خَبَرٍ: في العيد عَدّكما
وفي تعجب، أو شرط ومسألة ∴ بذاك واضع حكم اللفظ قد حكما
وفي جواب، وفي نفي، وأدعية ∴ بذاك واضح حكم النطق قد حتما
وفي مفاضلة الأنواع قد بدءوا ∴ به وما ظل بالتفضيل منقسما

٨ ـ المسألة الزنبورية :[٤٥] (أو المنا ظرة النحوية بين سيبويه[٤٦] والكسائي)[٤٧]

ويختم حازم منظومتة بإثارة قضية نحوية شائكة، احتد فيها النزاع بين زعيمي البصرة والكوفة : سيبويه والكسائي، وهي التي اشتهرت بالمسألة الزنبورية. فقد «ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز أنْ يقال: » أظنُّ العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها». وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز أن يقال: «فإذا هو إياها» ويجب أن يقال: «فإذا هو هي»[٤٨] وقد عرض حازم لأحداث هذه المسألة، فطرح أولاً موضعَ الخلاف بين المدرستين فقال :

قدكانت العقرب الهوجاء حَسَّبها[٤٩] ∴ قدما أشدَّ من الزنبور وقْعَ حَمَا
وفي الجواب عليها هل إذا هو هي ∴ أو هل إذا هو إياها قد اختصما

ثم نبه إلى تخطئة الكسائي لسيبويه، وتحامل أتباعه على زعيم البصرة حيث أَلْجَاءُوه إلى محاكمة جائرة تحسرت لها نفسه فمات بسببها غمّاً :

وخطّأ ابن زيادٍ وابن حمزة في ∴ ما قال فيها أبا بشر وقد ظلما

فظل بالكرب مكظوما وقد كربت ∴ بالنفس أنفاسه أن تبلغ الكظما
قضت عليه بغير الحق طائفة ∴ حتي قضى هدما مابينهم هدما

ويختم حازم منظومته ببيان ما يعاني منه العلماء المبَرَّزُونَ حين يتألب عليهم حُسادهم، فيمكرون بهم، ويحوكون لهم الدسائس، ليحافظوا على مكاناتهم، ويأمنوا على مناصبهم :

وليس يخلو امرؤ من حاسدٍ أَضِم ∴ لولا التنافُس في الدنيا لما أضما
فكم مصيب عزا من لم يصب خطأ ∴ له وكم ظالم تلقاه مُظَّلِمَا
والغبن في العلم أشْجَي محنة عُلِمَتْ ∴ وأبرَحُ الناس شجواً عالمٌ هُضِما

مذهب حازم من خلال منظومته :

أَبانَ حازم من خلال ميميته عن ترجيحه لمذهب البصريين. ومن المواضع التي تجلت فيها نزعته تلك قوله: إن المبتدأ يرتفع بالابتداء، والخبر مختلف في رافعه[٥٠] وهو مفهوم قوله :

فالابتدا إلى الاسمين مرتفع ∴ به وان كان في الثاني قد اختصما

فهذا ترجيح بيِّنٌ لمذهب البصريين، لأنَّ الكوفيين لم يجيزوا إلا وجهاً واحداً وهو الترافع بين المبتدإ والخبر.[٥١]

كما نصر حازم المذهب البصري حين ذهب إلى جواز تقدم الخبر على المبتدأ وهو ما أَلمَحَ إليه بقوله :

وحقُّ ماأبتدِئَى التقديم عندهم ∴ وربما قدموا الأخبارَ ربَّما[٥٢]

وينتصر حازم للمذهب البصري ثالثة حين يذهب إلى القول بأنّ الاسم المرتفعَ بعد «لولا» إنما هو مرفوع على الابتداء وخبره محذوف. وهو خلاف مذهب الكوفيين الذين يرون أن الاسم بعد لولا إنما هو على تقدير كونه فاعلاً، ولولا عاملة فيه، نائبة مناب فعل محذوف :[٥٣]

وبعد لولا احذف الاخبار مكتفيا ∴ بالفهم فيها وللايجاز مغتنما

ومن المسائل النحوية التي أبان فيها حازم عن ميوله البصرية أيضاً، مذهبه في عامل النصب

في المفعول. فهو يرى أن الفعل وحده أو ماكان له حكمه[٥٤] يعمل في الفاعل والمفعول جميعا. وهو ما يفهم من قوله : وناصب الاسم :

وناصب الاسم فعل أو مشابهه ∴ فكن لمعرفة الأشباه ملتهما

وهذا خلاف مذهب الكوفيين الذين يميلون إلى أن العاملَ في المفعول النصبَ هو الفعل والفاعل معا في أحد القولين، أو هو الفاعل وحدَه في ثانيهما.[٥٥]

وآخر شاهد أسوقُه دلالةً على نصرة حازم لمذهب البصريين، هو المسألة الشائكة التي ختم بها منظومته، وهي المسألة الزنبورية.

وواضح أن حازما يرجح مذهب البصريين في تخريج هذه المسألة. ولعل في الأبيات العشرة التي ختم بها منظومته خيرَ شاهدٍ على ذلك. فهو يتحسر فيها على ما أصاب زعيم البصرة من تَعَسُّفٍ وجَوْر، وما اعتراه من غمّ بسبب تلك المحاكمة الجائرة :

قضت عليه بغير الحق طائفة ∴ حتى قضى هدما ما بينهم هدما
حسادهُ في الورى عَمّتْ فكلهم ∴ تُلْفِيه منتقداً للقول منتقِمَا
والغبن في العلم أشجى محنةٍ عُلِمَت ∴ وأبرحُ الناس شجواً عالمٌ هُضِمَا.[٥٦]

● ● ●

هوامش

١ ــ سعيد الافغاني: من تاريخ النحو. ص ١٨٠. ط دار الفكر ط ٢.

٢ ــ قال محقق درة الغواص. ص ٨ : «ملحة الاعراب في صناعة الاعراب» ارجوزة شرحها بحرق الحضرمي واسمي الشرح: «تحفة الاحباب وطرفة الاصحاب» وقد طبعت الملحة مراراً في باريز وبيروت ومصر. كما طبع الشرح أيضاً في مصر مراراً». ا.هـ.
قلت: وقد طبع متن هذه المنظومة في المغرب كذلك، وعليه شرح وجيز للناظم.

٣ ــ هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري. له ترجمة في وفيات الأعيان: ٤/٦٣ ـ ٦٨. طبعة احسان عباس، وبغية الوعاة للسيوطي: ٢/٢٥٦ ــ ٢٥٩ طبعة دار الفكر. ط ٢.

٤ ــ نبه الدكتور عبد الكريم محمد الاسعد في المقال الذي نشرته له مجلة الدارة. العدد ٢. س ٩ تحت عنوان: «بين الفية ابن معط والفية ابن مالك إلى أن هذه المنظومة قد، طبعت سنة ١٨٩٥ بتحقيق زمرستاين، كما ذكر لها شرحين لايزالان مخطوطين.

٥ ــ هو أبو الحسين زين الدين يحيى بن معط الزواوي المغربي النحوي المشهور. له ترجمة في البغية: ٢/٣٤٤ ــ ٣٤٥.

٦ ـ طبعت مراراً، وعليها شروح وحواش كثيرة. وأشهرها وأكثرها تداولاً شرح ابن عقيل. وقد أفرد الدكتور عبده الراجحي كتاباً مستقلاً عرض فيه بالدراسة هذه الشروح وصدر بعنوان: «دروس في شروح الالفية.»

٧ ـ هو جمال الدين أبو عبدالله الطائي الجياني الشافعي. له ترجمة في البغية: ١/١٣٠ ـ ١٣٧.

٨ ـ إن الفية ابن مالك، مستخلصة من الكافية الشافية التي شرحها هو نفسهُ. وقد ظهرت محققة في خمسة أجزاء.

٩ ـ طبعت وعليها شرح مفصل للسيوطي نفسه وسماه: «المطالع السعيدة في شرح الفريدة.» وقد نشرَ هذا الشرحَ نشرةً علمية محققة للدكتور طاهر سليمان حمودة. وطبعته الدار الجامعية للطباعة والنشر بالاسكندرية. وعليها شرح آخر نفيس لأبي عبدالله محمد بن زكري أسماه: «المُهِمّات المفيدة في شرح الفريدة. وهو مطبوع طبعة حجرية في مجلدين. وعلَيها شرح ثالث للمدرّسي صدر في مجلدين.

١٠ ـ جلال الدين أبو بكر السيوطي. له ترجمة في شذرات الذهب: ٨/٥١ والأعلام: ٢/٦٩.

١١ ـ قال الخضري في حاشيته : «وللجلال السيوطي ألفية زاد فيها على هذه ـ يقصد الفية ابن مالك، ـ كثيراً وقال في أولها: «فائقة ألفية ابن مالك». وللأجهوري المالكي الفية زاد فيها على السيوطي وقال فيها: «فائقة الفية السيوطي». فسبحان الله المنفرد بالكمال الذي لايدانى ١.هـ: ١/١٢ ط دار الفكر.

١٢ ـ نبه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: ٥/١١٣ إلى أن السيوطي نسب حازما إلى قرطبة وخطأه في ذلك.

١٣ ـ هو محمد بن يوسف بنّ علي بن حيان الامام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي. له ترجمة في البغية: ١/٢٨٠ ـ ٢٨٥، والاعلام: ٧/١٥٢.

١٤ ـ هو أبو عبدالله محمد بن عمر الفهري السبتي. رحالة صنف رحلة سماها: «مَلْء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة». ولأستاذنا أحمد حدادي دراسة وافية على هذه الرحلة مطبوعة على الآلة الكاتبة في خمسة أجزاء.

١٥ ـ جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة: ١/٤٩١ ـ ٤٩٢.

١٦ ـ قال البغدادي في مراصد الاطلاع : ٣/١٠٧٨: «قرطاجنة بالفتح، ثم السكون، وطاء مهملة، وجيم، ونون مشددة، وقيل اسمها: قرطا، واضيف جنة لطيبها وحسنها: بلد قديم من نواحي افريقية، وهي عظيمة شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وهي على ساحل البحر، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا» ١. هـ .

قلت: وقد ورد في الاحاطة في أخبار غرناطة: ١/٢٠٨ النسبة إلى قرطاجنة قرطاجاني بزيادة الألف قبل النون. ولعله سهو قلم من المؤلف أو المحقق إذ لامسوغ لزيادتها. وقد ورد في النسبة بزيادة الألف خطأ في معجم المؤلفين لرضا كحالة : ٣/١٧٧.

١٧ ـ المقري: ازهار الرياض: ٣/١٧٣.

١٨ ـ محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، أبو عبدالله. من أعيان المؤرخين وأدبيب. له ترجمة في فهرست الفهارس: ١/١٤٢ ـ ١٤٣.

١٩ ـ أبو الحسن المخزومي، شاعر وأديب من أهل بلنسية. له ترجمة في الاعلام للزركلي: ٤/٣٣١.

٢٠ ـ أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد الطريسوني. له ترجمة في البغية: ١/٣٦٣.

٢١ ـ محمد بن سعيد البصير الموصلي. له ترجمة في البغية: ١/١١٤.

٢٢ ـ عمر بن محمد أبو عبدالله الاشبيلي. كان أمام عصره في العربية. من مؤلفاته كتاب في النحو اسماه: النوطئة وهو مطبوع. له ترجمة في البغية: ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٢٣ ـ البرنامج هو عبارة عن مدونة تضم شيوخ مؤلفها وما أخذه عنهم من الروايات، وما قرأه عليهم من الكتب، أو تضم شيوخ عالم معين تعهد غيره بجمعهم وذكر ما أخذ عنهم. ويسمى البرنامج كذلك بالفهرس، والمعجم، والمشيخة، والثبت، والسند، والتقييد. انظر مقدمة: «برنامج المجاري» ص ٥٨ ـ ٦٠ بتحقيق محمد أبو الأجفان، وقارن بفهرس الفهارس للكتاني: ١/٦٩ ـ ٧١ ط. دار الغرب الاسلامي.

٢٤ ـ حازم القرطاجي: منهاج البلغاء. ص ٥٤.

٢٥ ـ مرسية: بضم أوله، وكسر السين المهملة، وياء مفتوحة، وهاء: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير. مراصد الاطلاع:

١٢٥٨/٣ بتحقيق علي محمد البجاوي. ط دار المعرفة. ط ١.

٢٦ـ بياسة: ياء مشددة: مدينة كبيرة بالأندلس من كورة جيان. مراصد الاطلاع: ٢٣٦/١.

٢٧ـ بلنسية: السين المهملة مكسورة، وياء خفيفة: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، وهي شرقي قرطبة، وتعرف بمدينة التراب. مراصد الاطلاع: ٢٢٠/١.

٢٨ـ شاطبة: بالطاء المهملة، والباء الموحدة: مدينة في شرقي قرطبة. مراصد الاطلاع: ٧٧٤/٢.

٢٩ـ دانية: بعد الألف نون مكسورة، بعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة. مدينة بالأندلس، من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً. مراصد الاطلاع: ٥١٠/٢.

٣٠ـ هو محمد بن يوسف بن هود أبو عبدالله من ملوك، الطوائف. له ترجمة في الاعلام: ١٤٩/٧.

٣١ـ محمد بن الوليد بن الأحمر صاحب غرناطة. كان غاية في الشجاعة وتسلطن بعد أبيه وقتل سنة ٧٣٣ هـ. له ترجمة في الدرر الكامنة: ٢٧٩/٤.

٣٢ـ محمد بن يحي بن عبدالله بن محمد بن أحمد من أهل سبتة. إليه انتهت الرياسة بسبتة كسلفه وهم من رؤسائها. له ترجمة في الدرر الكامنة: ٢٨١/٤.

٣٣ـ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء ص ٥٩ (بتصرف).

٣٤ـ هو أحمد بن يوسف بن علي. له ترجمة في البغية: ٤٠٢/١ ـ ٤٠٣.

٣٥ـ هو علي بن مومن بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور. أشهر مصنفاته: الممتع في التصريف. وهو مطبوع. له ترجمة في البغية: ٢١٠/٢.

٣٦ـ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء ص ٧٠.

٣٧ـ السيوطي: البغية: ٤٩١/١.

٣٨ـ تتبعت هذة الرسالة في كشف الظنون: ١٠٢٧/٢، والاعلام للزركلي) ١٥٩/٢، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ١٧٧/٣، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ١١٣/٥، ولم أقف على ذكر لها في كل هذه المراجع.

٣٩ـ ديوان حازم: ص ١٢٣ ـ ١٣٣. تحقيق عثمان الكعاك ط دار الثقافة.

٤٠ـ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء. ص ٨٧.

٤١ـ لعله أراد نظمها على غرار لامية الأفعال لابن مالك، إذ هما متفقتان في البحر، متقاربتان في عدد الأبيات.

٤٢ـ وهذا لا يصح نظراً لتكامل أبوابها وتتابعها. ولعله قصد الاختصار والتركيز.

٤٣ـ «ما» الرافعها هي الحجازية. وهي تعمل عمل ليس بشروط سنة أوردها ابن عقيل في شرحه على الألفية: ٣٠٧/١ ـ ٣٠٨. وتعمل «لا» عند الحجازيين عمل ليس بشروط ثلاثة. أنظرها في شرح ابن عقيل: ٣١٣/١ ـ ٣١٦. وأما «لات» فاصلها: لا زيدت عليها تاء التأنيث المفتوحة ومذهب الجمهور أنها تعمل عمل ليس، والكثير في لسان العرب حذف اسمها وبقاء خبرها، ومنه قوله تعالى: «ولات حين مناص».

٤٤ـ يلاحظ أنها تعرف بأفعال القلوب مهما تصرف في التسمية.

٤٥ـ أنظر تفاصيل هذه المسألة في: «الانصاف في مسائل الخلاف». مسألة ٩٩ ـ جـ ٧٠٢/٢ ـ ٧٠٦ طبعة محيي الدين عبد الحميد، والبغية: ٢٣٠/٢، وقد أوردها السيوطي مختصرة.

٤٦ـ هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي إمام النحاة... صنف كتابه في النحو. لم يصنع قبله ولا بعده مثله. وقد نشره نشرة علمية محققة الأستاذ عبد السلام هارون، وصدر في خمسة أجزاء. ولسيبويه ترجمة في البغية: ٢٢٩/٢. والاعلام: ٨١/٥.

٤٧ـ هو علي بن حمزة بن عبدالله أبو الحسن الكسائي إمام الكوفيين في النحو واللغة، واحد القراء السبعة المشهورين. له ترجمة في: معرفة القراء الكبار للحافظ الذهبي: ١٢٠/١ ـ ١٢٨، والبغية: ١٦٢/٢ ـ ١٦٤.

٤٨ـ أورد ابن هشام في المغني أكثر أبيات حازم في هذه المسألة فانتصر لسيبويه واعتبر ما قاله الكسائي ـ ان ثبت ـ خارجاً عن القياس. أنظر المغني: ٨٩/١ ـ ٩٠. ط محيي الدين عبد الحميد، و: ص ١٢٣. طر الدكتور مازن المبارك وزميله. دارالفكر. ط ٥.

٤٩ــ هكذا ورد اللفظ في الديوان: ص ١٣٣. وفي المغني: ١/٨٩: أحسبها.

٥٠ــ قال ابن الانباري في الانصاف: ١/٤٤: «وأما الخبر فاختلفنا فيه: فذهب قوم إلى أنه يرتفع بالابتداء وحده، وذهب آخرون إلى أنه يرتفع بالابتداء والمبتدإ معا، وذهب آخرون أنه يرتفع بالمبتدإ، والمبتدأ يرتفع بالابتداء» ١ هـ.

٥١ــ عرض ابن يعيش في شرحه على المفصل لآراء الكوفيين والبصريين، وناقش بتفصيل أدلة الفريق الأول فانتهى إلى القول بفسادها وبطلان الاحتجاج بها. وانظر رده مفصلاً في: ١/٨٤ ــ ٨٥.

٥٢ــ وهو نفس ماذهب إليه ابن مالك، في خلاصته حيث قال:

والاصل في الأخبار أن تؤخرا ∴ وجوزنا التقديم إذ لا ضررا

وقد نبه ابن عقيل في شرحه على الألفية: ١/٢٢٧ إلى أنه: «يجوز تقديمه إذا لم يحصل بذلك لبس أو نحوه. كما ذكر أن الخبر ــ بالنظر إلى تقديمه على المبتدإ أو تأخيره عنه ــ ثلاثة أقسام:
قسم يجوز فيه التقديم والتأخير، وقسم يجب فيه تأخير الخبر، وقسم يجب فيه تقديم الخبر» ١ هـ: ١/٢٣٢.

٥٣ــ يقدر الكوفيون قول القائل: «لولا زيد لأكرمتك،» بقولهم: لو لم يمنعني زيد من اكرامك لأكرمتك، فالتقدير عندهم انبنى على حذف الفعل تخفيفاً وزيادة «لا» على «لو» فصار بمنزلة حرف واحد. وانظر المسألة مفصلة في الإنصاف: ١/٧٠ ــ ٧٨، وفيها انتصر ابن الانباري للكوفيين.

٥٤ــ عدد حازم بعض مايكون له حكم الفعل فقال:

ورافع اللفظ فعل أو مشابهة ∴ وما غدا معه في الحكم مستهما
من اسم فعل، أو مفعول، أو مثل ∴ في كل ما علمت ليست بدونها

٥٥ــ ابن الانباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/٧٨ ــ ٧٩.

٥٦ــ نبهت إلى أنها أبيات عشرة، واكتفيت بذكر ثلاثة منها اختصاراً. ومن شاء الوقوف عليها كاملة فلينظر ديوان حازم: ١٣٣.

■ ■ ■

المصادر والمراجع

١ ــ ازهار الرياض: المقّري. تحقيق مصطفي السقا وآخرين. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.

٢ ــ الأعلام: الزركلي. طبعة دار العلم للملايين. بيروت. ط ٥.

٣ ــ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام: العباس بن ابراهيم. المطبعة الملكية. الرباط. ١٩٧٥

٤ ــ الإنصاف في مسائل الخلاف: ابن الانباري. تحقيق محي الدين عبد الحميد. نشر المكتبة التجارية الكبرى. ط ٤

٥ ــ بغية الوعاة: السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم. طبعة دار الفكر ط ٢.
٦ ــ برنامج المَجاري: تحقيق محمد أبي الأجفان. ط دار الغرب الاسلامي.
٧ ــ تاريخ الأدب العربي: بروكلمان. ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب. طبعة دار المعارف. مصر. ط ٢.
٨ ــ حاشية الخضري علي ابن عقيل ج طبعة دار الفكر. بيروت. ١٩٧٨.
٩ ــ درة الغواص: الحريري. تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم. ط دار نهضة مصر.
١٠ ــ الدرر الكامنة: ابن حجر العسقلاني. ط دار الجيل بيروت.
١١ ــ ديوان حازم: تحقيق عثمان الكعاك. ط دار الثقافة بيروت.
١٢ ــ شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. نشر دار الفكر العربي لبنان.
١٣ ــ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي. طبعة دار الافاق الجديدة. بيروت.
١٤ ــ شرح ابن عقيل علي الفية ابن مالك: تحقيق محي الدين عبد الحميد. طبعة دار الفكر ط ١٦.
١٥ ــ فهرست الفهارس: عبد الحي الكتاني. طبعة دار الغرب الاسلامي. ط ٢.
١٦ ــ كشف الظنون: حاجي خليفة. طبعة دار العلوم الحديثة بيروت.
١٧ ــ مراصد الاطلاع: البغدادي. تحقيق علي محمد البجاوي. ط دار المعرفة ط ١.
١٨ ــ معجم المؤلفين: رضا كحالة نشر مكتبة المثني بيروت.
١٩ ــ معرفة القراء الكبار: الحافظ الذهبي. تحقيق بشار عواد معروف وآخرين طبعة مؤسسة الرسالة. ط ١.
٢٠ ــ مغني اللبيب: ابن هشام الانصاري. تحقيق محيي الدين عبد الحميد. طبعة مطبعة المدني القاهرة وتحقيق مازن المبارك، وزميله ط دار الفكر ط ٥.
٢١ ــ من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني. ط دار الفكر. ط ٢.
٢٢ ــ منهاج البلغاء: حازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بلخوجة. ٤ دار الغرب الاسلامي ط ٢.
٢٣ ــ وفيات الأعيان: ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس ط دار صادر. بيروت.
٢٤ ــ مجلة الدارة العدد ٢ السنة ٩.